الحياة بعد الموت

وآراء الاولين فيها

ملخصة من كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر في مبادئ علم السسيولوجيا بقلم نسيم افندي مرقاري

الاعتقاد بالمعاد اي برجوع النفس الى الجسد بعد مفارقتها اياهُ يتضمَّن الاعتقاد بان الانسان يحيا بعد الموت حياة اخرى. لكن الذين يعتقدون بالمعاد غير متفقين على كيفية الحياة الاخرى ولا على مدتها ولا على شيوعها وآراؤهم في ذلك كثيرة متباينة فيزعم بعضهم ان الحياة الاخرى تتوقف على بقاء الجسد سالماً فاذا انحلَّ امتنع المعاد . ويزعم غيرهم ان الحياة الاخرى محدودة تنتهي قسرًا اما بموتٍ آخر او بأن الالهة تبتلع النفس وتلاشيها . وخص آخرون الحياة الاخرى بالاشراف وعلَّقها البعض على سيرة الانسان في هذه الحياة الدنيا فجعلها جزاء الشجاعة وذلك شائع عند القبائل التي اعتادت الحرب والقتال اما القبائل الخالدة إلى الكينة والمسالمة كاهالي غوانمالا في جنوبي اميركا الشمالية فيعتقدون ان من لم يمت حتف انفه لم يُبعث حيًّا ولذلك يتركون جثث القتلى في ساحة القتال طعاماً للوحوش لانهم يعتقدون انهم لا يُبعثون . وكان الآريون القدماء يعتقدون ان الحياة الاخرى تتوقف على مشيئة الالهة فمن شاءت انعمت عليهِ بها ومن شاءت تركتهُ يفنى ولذلك كانوا يسترضونها بالذبائح لتبعثهم احياء وتنعم عليهم بالخلود

وقد اتفق اكثر الشعوب على ان الحياة الاخرى مشابهة للحياة الدنيا فالشوك في غربي اميركا الشمالية يعتقدون ان الموتى يقومون ليلاً ويسعون في طلب رزقهم . والكومانش في اميركا الشمالية ايضاً يقولون انهُ يستحب للموتى ان يزوروا الارض ليلاً ثم يرجعوا عند الفجر إلى مدافنهم. ولا يزال العامة في اوربا يعتقدون شيئاً مثل ذلك حتى الآن . وقبائل الهنود في اميركا الشمالية يقولون ان الحياة الاخرى تتمة الحياة الدنيا وان الموت من طوارىء الحياة . واهالي فيجي يقولون ان الموتى يزرعون ويحصدون و يتزوجون كما كانوا يفعلون وهم احياء والفرق بين الحياتين ان الثانية ايسر حالاً واكثر رخاء من الاولى. ويقول الكريك في شرقي اميركا الشمالية ان نفس الميت تذهب حيث الصيد كثير والطير وفير والقمح ينمو على مدار السنة والينابيع صافية لا تغيض . واهالي باتاغونيا في اميركا الجنوبية يؤملون ان يكونوا سكارى الى الابد. والاعتقاد واحد عند جميع هذه الشعوب واختلافهم في ما ينتظرون من المآكل وسائر الخيرات

في الحياة الاخرى ناتج عن اختلاف ما يوجد منها عندهم في هذه الحياة. فالقبائل التي تعيش بالقنص ترجو ان تجد صيداً وافراً في العالم الآخر والتي تعيش بالزراعة تنتظر الاراضي الخصيبة والمواشي الكثيرة والشعوب التي تميل الى الحرب والجلاد ترجو ان تستأنف القتال مع اعدائها في عالم الارواح. وهؤلاء وكل الشعوب العائشة بالصيد والقنص يدفنون اسلحة الميت معهُ لكي يحارب بها ويصيد في الحياة الأخرى. وبعضهم يدفن مع النساء ادواتهنَّ البيتيَّة ومع الاولاد الالعاب التي كانوا يلعبون بها وهم احياء

ومن قبيل ذلك تقديم اللباس للموتى فالايبيونيون في اميركا الجنوبيَّة يلفون رداء فرب القبر لكي يلبسهُ الميت حينما يخرج منهُ. واهالي داهومي يدفنون مع الميت شقَّة من النسيج ليرتدي بها بدلاً عن ردائهِ عند وصولهِ الى ارض الاموات. وكثيرون من المتوحشين كاهالي زيلاندا الجديدة وغربي استراليا وقبيلة الدمراس واهالي باتاغونيا وغيرهم يدفنون مع الميت كل ما كان يمتلكهُ وهو حيٌّ من لباس ومتاع وجواهر. وقد دُفن مع احدى ملكات مدغشكر حينما توفيت منذ عهد غير بعيد كثير من الثياب الحريرية والحلي والآنية الزجاجيَّة ومائدة وكراسي وصندوق فيهِ ما يزيد على خمس مئة جنيه واشياء اخرى كثيرة

ولم يقتصر اولئك القبائل على تزويد الميت بامتعتهِ بل كانوا يصحبونهُ بمواشيهِ فقبائل الكرخز في اواسط اسيا والباتاغونيون كانوا يدفنون مع الميت خيلهُ واهالي برغو يدفنون معهُ فرسهُ وكلبهُ. والعرب كانت تعقل ناقتهُ (١). والقبائل التي اشتغلت بالزراعة كانت تزوِّد موتاها بالبزور المختلفة لكي يزرعوها في الحياة الاخرى

وقد ادَّى الاعتقاد بالمشابهة بين الحياة الاخرى والحياة الدنيا الى دفن اصحاب الميت وزوجاتهِ وخدمهِ معهُ لخدمتهِ ومؤانستهِ في الحياة الاخرى. وهذه العادة شائعة بين الشعوب التي ارتقت قليلاً عن الحالة البدائيَّة الاولى كاهالي فيجي وكاليدونيا الجديدة وغينيا بريطانيا وقبائل الكرب والشينوك والدكوتة والداهوميين وغيرهم في افريقية. وبعض هذه القبائل يقتلون اسرى الحرب ليخدموهم في عالم الارواح. وقد كانت هذه العادة شائعة عند اليونانيين

---

(١) كانت العرب ترجو ان من مات ولم يبل عليهِ (اي لم تعقل ناقتهُ على قبره) حشر ماشياً ومن كانت له بدنة (وهي الناقة التي تسنَّ عند قبر صاحبها وتترك بلا علف ولا ماء حتى تموت) حشر راكباً على بدنهِ ومنهُ قول الشاعر

ابتِ زودي اذا قربتني في القبر راحلة يرحل فاتر
للبعث اركبها اذا قيل اركبوا مستوسقين معاً لحشر الحاشر

في ايام هوميروس فقد جاء في اشعاره انهم ذبحوا اثني عشر اميرًا من اهالي تروادة على قبر باتروكلس . وبعض زنوج افريقية يقتلون الخصيان عند وفاة النساء والرجال يقتلون حشم الملك لخدمته في الحياة الاخرى . واهالي فيجي يضحّون اعز اصدقاء الميت لمرافقته في السفر الاخير . وقد كانت هذه العادات شائعة عند سكان اميركا الاصليين فكان اهالي المكسيك يقتلون كاهن الرجل الوجيه لكي يقوم بفروضه الدينية في عالم الارواح . وعند قبائل كانوا يقتلون خدم الملك وهو محتضرٌ لكي يسبقوهُ ويعدّوا لهُ مكانًا . وغيرهم كانوا يقتلون المسرح والاقزام الذين يحبهما الملك في بلاطهِ لكي تسليهُ في الحياة الاخرى كما كانت تسليهِ في هذه الحياة الدنيا . وغني عن البيان ان وفاة الملوك والاشراف كانت تستلزم تضحية كثيرين من زوجاتهم واصدقائهم وخدمهم فقد ذكر بعضهم انهُ عند وفاة الواحد من اشراف بيرو كانوا يضحون على قبره ما ينيف على الالف من الضحايا البشرية . وهذه العادة كانت شائعة في اليابان الى عهدٍ غير بعيد

ويظهر للقارىء فعل هذا المعتقد بعقول اتباعه من اقبالهم على الموت طوعًا وعن طيب نفس . فبعضهم كانوا يقتلون انفسهم بايديهم . وكان زوجات الاشراف في بيرو يتزاحمن على الموت حتى يضطر الحشم الى منعهن عنهُ . وبعضهن كنَّ يستبطئن اقامة القبر فيقتلن انفسهن شنقًا بشعورهن ليلنَ الذكر الحسن . وكانت العادة في الكونغو انهُ اذا دُفن الملك دفنت بعض العذارى انفسهنَّ معهُ لخدمته في الحياة المقبلة وكان هؤلاء العذارى يتزاحمن على هذه الخدمة الجليلة فتشتدُّ بينهنَّ الغيرة و يقتلن بعضهنَّ بعضًا . وعند وفاة ملك الداهومي تكسر زوجاتهُ كل امتعتهِ وامتعتهن ثم يتقاتلن حتى يفنين . ذكر بعض السياح انهُ توفي احد اولئك الملوك فتقاتلت زوجاتهُ وملك منهنَّ مئتان وخمس وثمانون قبل ان تمكّن الملك الجديد من ايقاف القتال

ومن هذه الضحايا كانت تقدَّم احيانًا على قبور الاطفال فتُقتل والدة الطفل او جدتهُ او احدى نسيباتهِ لكي تعتني بهِ في عالم الارواح . ولم يقتصر الامر على قتل الخدم طوعًا او كرهًا لمرافقة اسيادهم بل كان الوالدون الشيوخ يطلبون احيانًا الى اولادهم ان يدفنوهم احياء . وهذه العادة كانت جارية في بلاد فيجي وغيرها

واعتقاد هؤلاء الناس بشابهة الحياة المقبلة للحياة الحاضرة في افراحها واتراحها حملهم على الاعتقاد بشابهتها لها في احوالها الاجتماعية ايضًا كالسلطة والطاعة وما اشبه فاهالي جزائر تاهيتي يقولون ان ملوك الدنيا يكونون ملوكًا في الآخرة . ويشفق اهالي فيجي من ذهاب احد

زعائمهم الى عالم الارواح وحدهُ مخافة ان لا يجد من يقوم بخدمتهِ وطاعتهِ . ويعتقد بعض قبائل الهند ان في السماء حكّاماً ورعيةً وان العدو الذي تقتلهُ في هذه الدنيا يصير عبدًا لك في الآخرة . ويقول الداهوميون ان الناس في الآخرة طبقات بعضها فوق بعض كما هم في هذه الدنيا . وهذا معتقد كثيرٍ من قبائل افريقية . وكان اليونانيون القدماء يزعمون ان ابندس وامرأتهُ برسفون حاكمان في العالم السفلي وان نسبة زفس (المشتري) الى بقيّة الآلهة كنسبة الملك المطلق الى الرعيّة . ولا يكتفي هؤلاء الاقوام باثبات المشابهة بين الحياة الدنيا والحياة الاخرى بل يقولون ان بينهما اتصالاً ثابتاً فاهالي الداهومي يقتلون الخدم من وقت الى آخر لكي يكون عند ملوكهم المتوفين عددٌ كافٍ منهم او يقتلونهم ليذهبوا رسُلاً يحملون الى الملك المتوفّى اخبار خلفهِ . والكنغو في جنوبي افريقية يقترضون النقود في هذه الدنيا لكي يوفوها في الآخرة مع رباها . وكان اليونانيون يعتقدون ان آلهتهم تحاربت مع آلهة الطرواديين فجزءٌ لهم . وهذا اصل ما شاع عند اقوام كثيرة من استرضاء الموتى واستشفاعهم واشراك الآلهة معهم او اتخاذهم وسطاء بينهم وبين آلهتهم

ويقول اكثر الشعوب ان الحياة الشديدة تشبه الحياة الحاضرة في الامور الادبيّة والسلوك والعواطف . فاهالي فيجي يصفون آلهتهم بالتكبر والخيلاء وحب الانتقام ويقولون انها تقتل وتاكل بعضها بعضاً . وينسبون اليها الزنى والقتل وخطف النساء ونحو ذلك من الاوصاف التي تدل على آداب عبّادها . واعتقاد اليونانيين في الحياة بعد الموت من وجهتها الادبيّة مبهم وما اتصل الينا منهُ يدلُّ على انهُ كان مشابهاً لاوصافهم العامّة . فاكلس حسب زعمهم كان يتوعّد اعداءهُ بالانتقام وهو في ارض الاموات وكان يُسَرُّ بانتصار ولدهِ في الحرب . وهرقل كان يجول في العالم الآخر يتهدد هذا ويتوعّد ذاك ويخيف الارواح التي حولهُ . وكانت آلهة اليونانيين ذات مكرٍ وخداع واهواء كلها مبنية على الحسد وحب الانتقام ولا سيما اذا اهملت عبادتها . ومما يجب الانتباه اليهِ ان صفات تلك الآلهة ارتقت بارتقاء الشعب كما يستدل من مقابلة عقائدهِ القديمة بالعقائد التي تلتها

ثم ان اعتقاد بعض المتمدنين بالحياة المستقبلة مشتقٌّ من اعتقاد المتوحشين . فهؤلاء اعتقدوا ان نفس الانسان الخالدة تشبه جسدهُ الارضي لا تُرى ولكنها تاكل وتحارب ولذلك كان بعضهم يقطع اصابع الاعداء المتوفين او يكسر اسلحتهم لكي لا يحملوها ويستعملوها بعد الموت . ولا ريب ان عادة احراق الجسد او عدمهِ بايّة طريقة كانت قد غيّرت الاعتقاد بجسمانية النفس وجعلت للحياة المستقبلة صفة خياليّة . فعوضاً عن دفن اسلحة الميت واعتقاد في فيرهِ

صاروا يحرقونها معهُ لتذهب نفوسها الى نفسهِ وهذه العادة شائعة عند قبائل كثيرة في اميركا وافريقية وعند الصينيين ايضاً

ثم ان اعتقاد الناس من جهة مطالب الحياة العتيدة ومشابهتها لمطالب الحياة الحاضرة قد تغير ايضاً . فعوضاً عَنْ الزرع والحصاد والحروب وغيرها مما زعم الاولون يوجودهِ في العالم الآخر صاروا يعتقدون بحياة لا يزوجون فيها ولا يتزوجون بل يُسبّحون فيها العزة الالهيةَ عَلَى الدوام . وكما اختلفت معتقداتهم في ما يتعلق بمطالب الحياة المستقبلة اختلفت ايضاً من جهة نظاماتها الاجتماعيةَ وانتفى كثيرٌ مما كانوا يرتأونهُ عَنْ السلطة والعبودية والتمييز بين طبقات الناس وغير ذلك مما نقلتهُ المخيلة من هذا العالم إلَى العالم الآخر . وما بقي منها كالتفاوت بين الملائكة بحسب الاعتقاد الشائع لهُ عندهم سبب آخر غير اسباب التفاوت الذي من نوعهِ على الارض

وما تقدَّم يصدق ايضاً على الاختلاف في الاعتقاد من جهة الحياة الاخرى ادبيًّا فارتقاء الآداب والفضائل في هذه الدنيا قد غيَّر معتقدات الناس في الآخرة . فعوضاً عن نسبة محبة الانتقام والقساوة إلَى الارواح صاروا ينسبون اليها المحبة والمسامحة للجميع . غير ان الانسان قاصر عن ان يتصوَّر شيئاً خارجاً عمَّا يراهُ في هذه الدنيا فلا غنى لهُ عَن ان يستعير بعض المؤثرات الارضيةَ وينسبها إلَى عالم الارواح في كلامهِ عَن الحياة الاخرى ولهذا يقول ان محبة المدح والتجيل وهي من اعظم المؤثرات الارضيةَ يكون لها شأن عظيم في العالم الآتي وان اعظم اسباب السعادة هناك هو اسداء الحمد والتسبيح والحصول على الرضى والارتياح

والخلاصة ان معتقدات الناس من حيث الموت والبعث والحياة العتيدة تغيَّرت رويداً رويداً فبعد ان كانوا يحسبون الموت سباتاً وقتيًّا صاروا يعدونهُ انحلالاً دائماً . وبعد ان كانوا يحسبون القيامة امراً عاجلاً صاروا يعدونها امراً آجلاً . وبعد ان كانوا يحسبون الحياة الاخرى جسمانية كالحياة الدنيا صاروا يحسبونها حياة روحيَّة خيالية . وبعد ان كانوا يعدونها مشابهة لهذه الحياة الدنيا في اعمالها ومطالبها وآدابها صاروا يحسبونها ارقى منها في الاعمال والآداب وبعدت ملذاتها عن الملاذ الَّتي نتمتع بها في هذه الدنيا . وبعد ان كانوا يعدونها متصلة تمام الاتصال بهذه الحياة قلَّ الاتصال بينهما وطالت الفترة بين انتهاء الحياة الدنيا وابتداء الحياة الاخرى

(الملخص) ان ما تقدَّم لا ينفي شيئاً مما يعتقدهُ اصحاب الكتب المنزلة عن القيامة والخلود والحياة الاخرى